الحسين [ع] في الشعر الاندلسي

الدكتور عبد الامير عبد الزهرة عناد الغزالي
أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة الكوفة

المقدمة:

عبرت طلائع الفتح الاسلامي البحر صوب أوربا – أسبانيا الحالية – في شهر رجب سنة ٩٢ هـ وهي تحمل معها الفكر الاسلامي لتوصله إلى هناك ولتقيم على هديه دولة الإسلام في تلك الأصقاع من أرض الله .

(طه . د عبد الواحد ذنون ١٩٨٦ ص١٦ نقلا عن– ابن القوطية ١٩٢٦ – ص٨-٩)

وقد كان فتح تلك البلاد التي أطلق عليها المسلمون اسم الأندلس والأمويون هم الحكام على المسلمين . أولئك – الأمويون – الذين حاولوا أن يجعلوا الخلافة الإسلامية حكماً وراثياً عضوضاً في أسرتهم ، وقد تيسر لهم ذلك وعلى يد مؤسس دولتهم معاوية ، ولم يدخروا وسيلة من أجل إطالة أيام حكمهم على المسلمين حتى أنهم أنزلوا الفاجعة الكبرى بأهل البيت عليهم السلام في كربلاء حيث قتلهم الحسين بن علي عليهما السلام وأهل بيته وأصحابه وسبيهم لعيالاته وحرمه ، وقد كان ذلك قبل ثلاثين سنة من فتح المسلمين الأندلس .

وعلى كثرة الدواهي والنوازل التي حلّت بأهل البيت عليهم السلام بعد التحاق النبي (ص) بالرفيق الأعلى تبقى كربلاء هي الأدهى والأعظم من بينها جميعاً .

وقد أخذت هذه النازلة الكبرى أثرها في أهل البيت أنفسهم وكذلك في شيعتهم ناهيك من أنها قد شكّت الضمير الإنساني الحي وبالصميم .

حتى أضحت كربلاء معيناً دفاقاً تعبُّ منه القرائح غذاءاً هنيئاً سائغاً لما تجود به من نتاج أدبي ملأت به الآفاق ترثي به الحسين عليه السلام والعصابة التي جاهدت معه، وتبين عمق المأساة وفداحة الكارثة التي نزلت بآل بيت الرسالة ، وتشنع بمن مهّد ورضي وقام بتلك الفعلة الشينة ، وتحث الفكر ، وتحرك وتهيج الفكر والعواطف ، وتدل كل أحرار الدنيا والمظلومين بالاسترشاد والاحتذاء ، وتهديهم لاتخاذ الحسين عليه السلام وأصحابه قدوة وعلى مر العصور والأجيال .

ولما كان من كثرة النتاج الأدبي الذي قيل في كربلاء – خاصة الشعر – فقد لفت انتباه جملة من الباحثين والمؤلفين في شؤون الأدب فأفردوا له التآليف والدراسات .

ويكفينا أن نذكر مؤلفاً واحداً مكوناً من ثمانية مجلدات تضمنت الشعر الذي قيل في الحسين عليه السلام وكربلائه ، هو "أدب الطف " للسيد جواد شبّر رحمه الله ، ونحن نقطع بأن هذا السفر على عظم فائدته وسعة محتواه لم يتمكن من الإحاطة بكل ما قيل شعراً عن كربلاء ، وكذلك لم يأتِ بكل الشعراء الذين ذكروا الحسين عليه السلام بشعرهم هذا فيمن عاصروا المؤلف أو سبقوه فكيف والزمن جوّاد رعوف .

ويمكننا القول قاطعين بأنه ما من أحد من شعراء الشيعة قد غادر كربلاء ولم يقف عندها ، بل أنهم جميعا حطوا الرحال بطفها ، وأطالوا الوقوف والبقاء بها ، فبكوا وأبكوا.

وكان أول المتقدمين علىمواكب الشعراء من حيث اللحاظ الزمني بالوقوف عند الحسين عليه السلام وكربلائه عقبة بن عمر السهمي من بني سهم بن عوف بن غالب ، وهو يقول :

مَرَرْتُ على قَبْرِ الحسينِ بكربلا ففاضَ عليه منْ دموعي غزيرُها
وما زلْتُ أبكيهِ وأرثي لِشَجْوهِ ويسْعدُ عيني دمْعُها وزفيـــرُها

(الأمين السيد محسن ١٩٨٩م\ص٣٧)

وقد كان من تشجيع وطلب أئمة أهل البيت عليهم السلام من شعرائهم رثاء الحسين عليه السلام قوة دافعة لأولئك الشعراء بما زخّوا به الأدب العربي وأتحفوه بنتاجهم الثرّ الغزير الذي شكلت الكثير من قصائده عيون الشعر العربي وروائعه .

فهذا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حينما يدخل عليه أبو هارون ، المكفوف ، وينشده شعرا بحق مصيبة جده الحسين عليه السلام يبكي ، ثم يقول لأبي هارون "أنشدني كما تنشدون " — يعني بالرقة- يقول أبو هارون فأنشدته :

أمررْ على جَدَثِ الحسينِ فَقُلْ لأعْظُمِهِ الزَّكيَّة

(ابن قوقوبه ١٣٥٦هـ.ش ص ١٠٤)

ولن يتمكن أحد من إنكار إغناء شعر الرثاء الحسيني الأدب العربي ، وبرغم التهمة الموجهة لأدب التشيع بأنه أدب حزن وألم وتشاؤم نتيجة لما ضج به من إلحاح في رثاء الحسين عليه السلام ، وتتبع لما لحق بآل البيت من ظلم وحيف وتقتيل وتشريد . إلا أن الواقع الذي رزح تحت وطأته الشيعة أخذ بأيدي شعرائهم إلى ما هم عليه من إظهار للحزن .

وتتضح للناقد الحصيف حقيقة هي أن هذا الحزن تأجيج للمشاعر يبتغى منه تفجير الثورة في كل زمن . تلك الثورة التي وظفوا لها أدبهم أحسن توظيف مبتغين من ورائه عدم السماح للعواطف بالخفوت والخمود كي تستنهض النفوس باستثارة الأحاسيس والمشاعر لتصبح متضافرة متضامنة في خندق واحد مع الفكر تشد أزره وتبعث في أصحابه العزم والاندفاع والثبات .

فمن ثنايا رثاء الحسين عليه السلام "يستطيع الأدب الشيعي ، أن يبكي في ثورته وأن يثور في بكائه ، وأن يسيطر على الموقف في كلتا الحالتين ، لأنه يلقي من شظايا فؤاده ... والكبت حين يتصل بأعماق النفس ليمزج العقيدة بالعاطفة ، يتصعد مع الزفرات

أدباً يلهب ويبكي ويستبكي ، وفي أنَة الحزن معان لا تستطيع أن تعبر عنها أنَةُ المعافى ، وإن تشابهتا في التوقيع ، هذا ما يجعل أدب الشيعة في القمة من أدب المسلمين ، وفي الذروة من أدب العروبة ، وهذا بعض ما استفاده الشيعة من يوم الحسين عليه السلام ، وأيام العترة في التاريخ ، وأيامهم في التاريخ دموع ودماء" .

(محمد أمين ١٩٩١ العدد١١ ص١٠٣٤)

التشيع في الأندلس:

والأندلس تلك البلاد النائية عن الأرض التي قتل فيها الحسين عليه السلام والتي افتتحت في أيام دولة عدوة لآل البيت عليهم السلام غصبت منهم خلافة المسلمين ، وحاولت جاهدة أن تعفو ذكرهم من الأرض واذهان الأمة ، وعلى وجه الخصوص في الأندلس ، وذلك بإشاعتها الثقافة الأموية الخاصة ، وسعيها لتجاهل كل شئ يمت لأهل البيت بوصل ، بل تناسيه وعدم ذكره مطلقاً ، بل ومحاربته . إلا أنه وبالرغم من كل هذا فلم تكن الأندلس بأقل حظا من غيرها من أرجاء بلاد الله التي دخلها الإسلام في معرفة أهل البيت والتعاطف معهم ، بل والذوبان فيهم والمطالبة بحقهم ونبذ من عاداهم وقتلهم ، والسعي جاهدة لطرحه ولفظه وهدً أركان ما أقامه من كيان قد شيَّد أساسه على معاداة أهل البيت المطهر .

ولعل هذا الكلام يسترعي الانتباه ويثير بعض ما في النفوس ذلك من أنها أفهمت بأن الأندلس أموية الفتح أموية السقوط بناءً على ما حاولت أن تصوره بعض الأقلام بقصد أو بغير قصد، او بسبب عدم اهتمامنا بشأن ذلك الفردوس المفقود "الأندلس" . وعدم متابعتنا لتأريخه بما يجب ويستحق .

ومن غير مبالغة ولا تضخيم يمكننا التفوه بأن الأندلس وبالرغم من كل الإطباق الحديدي الذي جهد الأمويون في ضربه عليها واستخلاصها لهم ولمواليهم وعدم السماح بدخول أي فكر إليها – ومهما كان مؤداه – غير الفكر الأموي إلا أنها كانت مرجلاً يغلي بالتشيع ، وقد تتابعت ثوراته العارمة فما كانت لتخمد ثورة بقوة الحديد والنار حتى تتفجر أخرى تكاد أن تطيح بالدولة الأموية هناك . (الغزالي الدكتور عبد الأمير ١٩٩٧ص٣٨)

حتى أن إحدى هذه الثورات الشيعية – وفي زمن عبد الرحمن الداخل معيد الكيان الأموي على هيئة دولة في الأندلس بعد إزالته من المشرق على يد التشيع – كادت تقيم حكما شيعيا يسبق دولة الأدارسة في المغرب بعشرين عاما. (الغزالي الدكتورعبد الأمير ١٩٩٧ص٣٩ نقلا عن الذخيرة)

ولم ينفك التشيع وثوراته المتتالية في الأندلس من ملاحقة التشكيلة الأموية القائمة هناك إلى أن أرداها سنة ٤٠٧هـ (الغزالي الدكتور عبد الأمير ١٩٩٧ص٥١) مقيما على أنقاضها حكماً علوياً شيعياً اتخذ لنفسه اسم الخلافة وبدون أي تحفظ ومنذ الأيام الأولى . ومن الجدير ذكره أن تلك التسمية لم يجرؤ كيان الأمويين هناك على

إلصاقها بنفسه إلا في سنة ٣١٦هـ على يد ثامن أمرائهم عبد الرحمن الناصر بالرغم من أن إمارتهم كانت قد وضعت لبناتها الأولى عام ١٣٨هـ .

رثاء الحسين عند الأندلسيين:

بعد أن وضعنا أساساً عاماً لدى القارئ الكريم عن التشيع ووجوده في الأندلس نحاول الآن وضع يده على شئ من أدب التشيع هناك ، وهنا يمكن القول — ومن دون مبالغة أيضاً — بأن الأدب الشيعي هناك أمسك بعصا السبق على عموم الأدب الأندلسي من جانب ، وأنه كاد يفوق الأدب الشيعي المشرقي من جانب آخر .

فهو من حيث الغزارة والرصانة والإبداع والاعتناء بأمهات مطالب الفكر الشيعي له المقام الأعلى والمنزلة المكينة .

فالمتربعون على عرش الأدب الأندلسي لا تجدهم إلا متشيعين من أمثال ابن هانيء ، وابن شهيد ، وابن دراج ، وعبادة بن ماء السماء ، وابن الأبار البلنسي ، وابن أبي الخصال ، وابن عبدون ، وأبي بقاء الرندي ، وصفوان بن إدريس ، وغيرهم الكثير .

فعندما يعقد ابن بسام الشنتريني فصلا في "ذخيرته" لابن دراج ، وينقل قصيدته التي يمدح فيها علي بن حمود مؤسس الدولة الشيعية في الأندلس والتي مطلعها:

لَعَلَّكِ يا شمسَ الأصيلِ شَجوْتِ لِشجْوِ الغريبِ الذليلِ

(ديوان ابن دراج ١٩٦١ص٧٥ ، الشنتريني ١٩٧٩ق١م١ص٨٨ وما بعدها)

يجعلها من الهاشميات الغرّ ، ويقرضها بقوله : (وهذه القصيدة له طويلة ، وهي من الهاشميات الغر بناها من المسك والدر ، لا من الجص والآجر ، لا بل خلدها حديثاً على الدهر ، وسرّ بها مطالع النجوم الزهر ، لو قرعت سمع دعبل بن علي الخزاعي والكميت بن زيد الأسدي لأمسكا عن القول وبرئا إليها من القول والحول ، بل لو رآها السيد الحميري ، وكثير الخزاعي ، لأقاماها بينة على الدعوى ، ولتلقياها بشارة على زعمهما بخروج الخيل من رضوى ، وقد أثبتنا أكثرها أعلاناً بجلالة قدرها واستحسانا لعجزها وصدرها وأولها) . (الشنتريني ١٩٧٩ق١م١ص٨٧).

والأدب الشيعي الأندلسي لم يغفل عن الفاجعة الكبرى التي لحقت بالتشيع في كربلْاء ، بل إنه امتاز عن الأدب الشيعي المشرقي وتعداه إلى أن قسما من أدبائه قد وقفوا من أنفسهم شعراءاً لكربلاء ، وكفوا عن القول في غيرها ، وهذا لم يكن في المشرق من قبل أدباء التشيع بالرغم من أنهم نظموا الطوال في عاشوراء ، إلا أنهم جعلوا لباقي الأغراض الشعرية نصيباً في أشعارهم حتّى ولو كان النظم في باقي الأغراض قليلا .

وقد انفرد بعض شعراء التشيع الأندلسي بذلك ، وذلك بأنهم نظموا في رثاء الحسين عليه السّلام ولا غير . (المغربي ابن سعيد ١٩٧١ج٢ص٢٦٠-٢٦١)

ويعد أبو القاسم محمد ابن هانئ الأزدي الأندلسي الوالج الأول في غرض رثاء الحسين عليه السلام من شعراء التشيع في الأندلس ، وهو بنفس الوقت أول شاعر شيعي عرفته الأندلس ولد ونشأ في إشبيلية في أيام عز دولة المروانيين الأمويين "وبسبب اتهامه

بالتشيع واتباع مذهب الفلاسفة ..... هرب من الأندلس إلى المغرب ، وعمره آنذاك سبع وعشرون سنة ..... ثم بلغ خبر ابن هانئ المعز الفاطمي فاستقدمه إلى القيروان وبالغ في إكرامه " (ناجي الدكتور منير ١٩٦٢ص٥وما بعدها)

وكان ابن هانئ قد أورد رثاء الحسين عليه السلام في أول قصيدة مدح فيها المعز لدين الله الفاطمي ، والتي يقول فيها:

فكانَ جدُكَ في فوارسِ هاشمٍ منهم بجيشٍ ترى الحسينَ ذبيحا

(ديوان ابن هانئ ١٩٨٦ص٧٦)

وما كان ابن هانئ ليتجافى عن كربلاء ورثاء الحسين عليه السلام في العديد من قصائد شعره التي نذرها للذود عن التشيع والدفاع عن رموزه من الفاطميين ، بل وفي أكثر المناسبات التي نظم فيها ابن هانئ ، كقوله في إحدى قصائده :

ألا إنَّ يوماً هاشمياً أظلَّهُـــم يطيرُ فراشُ الهامِ عنْ كلِّ مجثمِ
كيومِ يزيدٍ والسبايا طريـــدةً ككلِّ موارِ الملاطِ عَتَمْتُـــمِ
وقد غصَّت البيدُ بالعيسِ فوقها كرائمِ أبناءِ النبيِّ المكـــرَّمِ

(ناجي الدكتور منير ١٩٦٢ص٨٥)

ولم يفت شعراء التشيع في الأندلس الذين جاءوا بعد ابن هانىء ندب الحسين عليه السلام ورثاءه والوقوف عند كربلاء ومصائبها. فهذا ابن دراج يثبت ذلك في هاشميته التي مر علينا تقريض ابن بسام لها، فيقول:

تهاوتْ بهمْ مُصْعقاتِ الرَّواعدِ في مُدجنات الضَحى والأصيلِ
بَوارقُ ظَلماءِ ظُلـــمٍ قبيـــحٍ دمى من ضُحى أو دَماً مِنْ قتيلِ
فأدْهلَ مُرضِعةً عنْ رضيـــعٍ وأنْسَى الحمامَ ذِكْرى الهَدِيـــلِ

(الشنتريني ١٩٧٩ق١ ص٨٨)

وهذا أيضا الوزير ابن عبدون في رائيته الشهيرة يذكر بمصاب الحسين عليه السلام ، ويعرج عليه هاجماً على عبيد الله بن زياد وشمر لجترائمها على حرمة الأمام الحسين عليه السلام ، ويصمهما بالعار والخسران، بقوله:

وأجْرَرتْ سيفُ أشقاها أبا حَسَنٍ وأمكَنْت مِنْ حُسينٍ راحتي شِمرِ
وليْتها إذْ فَدَتْ عَمْراً بخارجَـــةٍ فَدَتْ عَلياً بمَنْ شاءت مِنَ البشرِ
وأرْدَتِ ابْنَ زيادٍ بالحسينِ فلَـــمْ يَبُوءُ بشسعٍ لهُ طاحَ أو ظفـــرِ

(الشنتريني ١٩٧٩ق٢م٢ص٧٢٠-٧٢٤ ، نقلا عن العبر ، ونفح الطيب)

وهكذا بقي رثاء الحسين عليه السلام في الشعر الشيعي الأندلسي يأتي طياً وضميمة في القصيدة الشعرية مع مواضيع وأغراض أخرى مساوقاً بذلك كيفية وروده في شقيقه الشعر المشرقي ، حتى جاء أبو عبد الله محمد بن مسعود ابن أبي الخصال الشقوري (٤٦٥هـ - ٥٤٠هـ) "وقد استحيى مأساة الحسين عليه السلام وجدد ذكر كربلاء ، ولاشك أنه أنشأ عدة قصائد وقطعاً نثرية في الموضوع ، لأن الرجل كان غزير الانتاج

حياش العاطفة ، يمتح من نفس مليئة بالأحزان تتفجرمن أغوارعميقة ، لكن لم نسمع من ذلك الانتاج إلا بعض أبيات وخلا قصائد نبوية ، وقصيدتين رواهما ابن خير عن الشاعر نفسه كما نص على ذلك في كتابه المفيد (الفهرست) .

(الهراس الدكتور عبد السلام العدد ١٤ السنة السادسة)

والذي يهمنا من النص السالف الذكر ، وما يمكن أن نستفيده منه هو بيان شاعرية ابن أبي الخصال ، ونفسه المليئة شعراً ، وإشارة النص إلى ضياع الأدب الشيعي الأندلسي بلحاظه العام ، ناهيك عن رثاء الحسين عليه السلام ، ثم تتضح لنا أيضاً السنة الشعرية الجديدة التي اختطها وأبدعها ابن أبي الخصال في رثائه الحسين عليه السلام وذلك بأنه جعل رثاء الحسين عليه السلام في قصائد مستقلة لا يشوب تلك القصائد أي غرض آخر . وقد أكد هذا المعنى الدكتور عبد السلام الهراس والأستاذ سعيد أحمد عراب في مقدمتهما عند تحقيقهما لكتاب (درر السمط في خبر السبط) بقولهما: "ويدشّن — في حدود علمنا — أبو عبد الله محمد ابن أبي الخصال الشقوري (٤٦٥هـ-٥٤٠هـ) هذا النوع من الأدب فيبك الحسين عليه السلام في قصيدتين حسب ما وصل عن ابن خير ، إحداهما على قافية النون المرفدة بالألف ، والثانية على قافية التاء بعد الألف "

(القضاعي ابن الأبار ١٩٧٢- المقدمة)

فيقول في الأولى :

عرِّجْ على الطَّفِّ إنْ فاتتْكَ مَكْرَمـــةٌ ... وأَدِرِ الدُّموعَ بها سَحّاً وهتانـــا
وابْكِ الحسينَ ومنْ وافى مَنيَّتَـــــهُ ... في كربلاءِ مَضَوا مَثْنَى ووحْدانا
يا ليتَ شعري أنّى جريخُ الطَّفِّ دونهُمُ ... أُهينُ نفساً ثفيد العزَّ مَنْ هانـــا
إنّي لأجْعل حُزْني فيهما ترَفـــاً ... يكونُ للذَّنْبِ تكفيراً وغُفْرانـــا
للهِ عينٌ بكتْ أبْناءَ فاطمـــــةٍ ... ترى البُكا لهُمْ تقوى وإيمانـــا

(ابن خير ١٩٦١ص٤٢١)

ويقول ابن أبي الخصال في قصيدته الثانية المستقلة في رثاء الحسين عليه السلام والتي تبلغ تسع وعشرين بيتاً :

لهفَ نفْسي على الحسينِ ومَنْ لي ... أنْ تقضي حُقوقَهُ عَبَرَاتـــي
يا جفوني بَرِئْتُ مِنْكِ إذا لـــــمْ ... تُغْرقي في بحورِها نظَراتي
لهفَ نفسي على قتيلٍ يُعَـــزَّى ... عنهُ خيرُ الآباءِ والأمهـاتِ
أيُّ عيشٍ يَطيبُ بعدَ قتيـــــلٍ ... ماتَ بالمُرْهَفاتِ أيَّ مَمـاتِ
حَرَمُوهُ ماءَ الفراتِ ولـــــوْلا ... جَدُّهُ ما سُقُوا بماءِ فُـــراتِ
إنَّ في كربلاءِ كرباً سَقيمـــاً ... فَتَنَ المؤمنينَ والمؤمنـــاتِ

(الهراس الدكتور عبد السلام العدد١٤ السنة السادسة)

وبالرغم من أن ابن أبي الخصال قد أفرد لرثاء الحسين عليه السلام قصائد مستقلة إلا إنه لم يقتنع بإيراد قصائده الأخرى من دون ذكر الحسين عليه السلام وكربلاء ومن ذلك ما جاء في نبويته المسماة "معراج المناقب ومنهاج الحد الثاقب" وكان قد

عارض بها قصائد حسان بن ثابت ، وقد خمسها أبو عبد الله محمد بن الحسين بن جيش المرسي وبفضل ذلك التخميس استخلص منها الدكتور عبد السلام الهراس جملة من الأبيات منها:

وَيلحقُهم فَضلُ الشفاعةِ بالرِضى ... كُلوُا واشرَبُوا مِنْ خَير أكلٍ وَمُشَربِ
سوى أنَّ قَوماً جَعْجَعُوا بِأبن بنتهِ ... وَحَفُّوا بهِ مِن قَاتِلٍ وَمُؤَلِّـــــبِ
وَأنْحُوا على أوداجهِ كلَّ مُرْهَفٍ ... طَريداً وَحَزُّوا رَأسَهُ لِتتـــــوِّبِ

(الهراس الدكتور عبد السلام العدد١٤ السنة السادسة . نقلا عن أزهار الرياض)

وما أن سن ابن أبي الخصال افراد رثاء الحسين عليه السلام غرضا خاصا مستقلا حتى ظهر من بعده شاعر جاء بأكثؤ مما جاء به ابن أبي الخصال ، حيث أنه وقف من نفسه وأفرد شعره بأكمله في أهل البيت عليهم السلام ووؤساء الحسين فقط . وهذا الشاعر هو أبو البحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي . ومن طربف ما يذكر عن أبي البحر هذا بأنه كان كغيره من شعراء العرب يقول الشعر في أغراض متعددة ويمتدح الأمراء والسلاطين (واشتهر أنه قصد حضرة مراكش ومدح أعيانها فلم يحصل على طائل فأقسم ألا يعود لمدح أحد منهم ، وقصر أمداحه على أهل البيت عليهم السلام وأكثر من تأبين الحسين رضي الله عنه ، فرأى المنصور " منصور بني عبد المؤمن " في منامه النبي (يشفع له فيه وسماه له ، فقام المنصور وسأل عنه ، فعرف قصته فأغناه عن الخلق يومئذ" . (المغربـــي ابن سعيد ١٩٧١ج٢ص٢٦٠-٢٦١)

وقد تناقلت أكثر المصادر هذه الحادثة لأبي البحر ، وكذلك وردت على ألسنة عظماء عصره ومن بينهم الشاعر محمد بن مرج الكحل الذي خلدها شعرا ، بقوله:

وَتبَلْتَ عنْ َصفوانَ ثبْلَ كَرَامَـــةٍ ... حَبَاهُ بها الرَّحمنُ والخُلفـاءُ
وَلِلهِ في صفوانَ أيَّةُ آيَـــــــةٍ ... تكَشَّفَ عنها لِلعِظَام غِطَاءُ
مَا ضَاع منه في الحسين انْتِصَارُه ... وَلا خَابَ عِنْدَ اللهِ فيهِ جَزَاءُ

(الأمين السيد حسن ١٩٨٦م٤ص٢١٥)

ولحق شعر صفوان — مع وقفه على الحسين عليه السلام — الضياع شأنه كأكثر الأدب الشيعي في الأندلس ، وقد أشار جملة من الباحثين إلى هذا الضيـــاع المؤسف "وعلى الرغم من أن لصفـــوان رسائل بديعـــة وقصائد جليلـــة في مراثي الحسين عليه السلام فإنه لم يصلنا من أدبه في هذا الغرض إلا قصيدتان وبضعة أبيات " .

(القضلعي ابن الأبار ١٩٧٢ — المقدمة)

وقد ذكر القصيدة الأولى كل من كتب عن ابن إدريس والتي يقول فيها:

سلامٌ كَأزهارِ الرُّبَى يَتنَسَّـــــمُ ... على مَنزِلٍ منه الهُدى يُتعَلَّمُ
على مَشْهَدٍ لو كُنْتَ حَاضِرَ أهْلِـــه ... لَعَاينتَ أعْضَاء النَّبيِّ تُقَسَّمُ
على كربلاءٍ لا خَلَفَ الغَيثُ كَربلا ... وإلا فَإنَّ الدَّمعَ أندى وَأكْرَمُ

(ابن الخطيب لسان الدين ١٩٣٤ص٣٧-٣٨)

والقصيدة طويلة . ولكن بعض من أورد القصيدة قد حذف منها بيتين فيما أثبت

هذين البيتين بعض آخر وقد تتبعنا القصيدة في مضانها الأصلية فوجدنا البيتين كما هما:

إذَا صَدَقَ الصَّديق حَمله مقدم وَما فَارق الفاروق مَاضٍ وَلَهْـدَمُ
وَعَاثَ بهِم عَيثَ ابَن ضَـرَّةٍ وأعلى على كَعْبٍ مَنْ كَان يَهْضِمُ

ومن الذين أثبتوهما الدكتور عبد اللطيف السعداني في مقاله " حركة التشيع في المغرب ومظاهرها".(السعداني الدكتور عبد اللطيف ١٣٩١ العدد٢ السنة الأولى ص٥٤-٧٠)

"وكانت قصائد صفوان ينشدها المسمعون" (نفس المصدر السابق) في مراسيم ومواكب العزاء الحسيني وقد ذكر ذلك ابن الخطيب . (ابن الخطيب لسان الدين ١٩٣٤ص٣٦)

وأما قصيدة صفوان الثانية ، فمنها قوله:

أوْمِض ببَرْقِ الأضلـــع واسكبْ غَمَـامَ الأدْمُـعِ
واحْزَنْ طويلاً واجَـزعِ فَهـو مَكـانُ الجَـزَعِ
وانثرْ دِمَاءَ المُقْلتيـــن تألَـاً علـى الحسيـــنِ

(الأمين السيد الحسن ١٩٨٦ م٤ص٣٠٢)

وممن عرفوا بصفوان وأثنوا عليه وعلى طرقته في رثاء الحسين عليه السلام وحاولوا تقليده الشاعر ابو البقاء الرندي في كتابه " روضة الأنس ونزهة النفس " إذ يقول : "وقد رثي الحسين قديما وحديثا ، وممن بكاه فأحزن ورثاه وأجاد ابو بحر صفوان بن إدريس الأندلسي رحمه الله ، ومن عجيب ما حكي عنه أنه دخل مراكش ....." (الأمين السد حسن١٩٨٦م٤ص٣٠٢) ثم يورد قصة الرؤيا التي أشرنا لها ويقول أبو البقاء (وأجاد ما شاء المخمسة التي نظم أقسامها على حروف العجم وذيل مراكزها بإعجاز من قصيدة امرئ القيس "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل") ومنها:

دِيارُ الهُدى بالخَيفِ والحُجُرَاتِ إلى مُلْتقى جَمْع إلى عَرَفَـاتِ
مَجَاري سُيولِ الغَيمِ والعَبَـرَات مَعَارف هَدْيٍ أصْبَحتْ فَكِرَاتِ
لِمَا نسجتها من جُنوبٍ وَشَمْأل .

(الأمين سيد حسن ١٩٨٦م٤ص٣٠٢)

ومن الذين رثوا الحسين عليه السلام من شعراء التشيع الأندلسي شاعر معاصر لأبي البحر صفوان بن إدريس وهو ناهض بن محمد الوادي آشي المتوفي "٦١٥هـ" والذ أفرد بدوره قصائد مستقلة أيضا في الرثاء الحسيني ، وهذا الشاعر لم يصلنا من شعره في هذا الغرض إلا قصيدة واحدة " شديدة الأسى والالتياع ، وقد اختار لها إطارا فنيا أضفى عليها ظلالا من الحزن وشحنها بأنفاس شجية باكية" .

(القضاعي ابن الأبار ١٩٧٢- المقدمة)

وقد أورد قصيدة الوادي آشي الدكتور عبد السلام الهراس وكذلك ذكرها صاحب دائرة المعارف الشيعية ولكنهما نسباها غفلة لأبي البخر صفوان بن إدريس ، وعند تتبعنا للمضان والمصادر القديمة وجدنا بأن المقري في نفح الطيب ذكرها

كاملة ، وقد نسبها لقائلها ناهض بن محمد ، ومنها:

أمْرنَةٌ سَجَعَتْ بعودِ أراكِ ... قولي مُوَلهَةً عَلامَ بُكاكِ
أجَفاكِ إلفُكِ أمْ بُليتِ بفُرْقَةٍ ... أمْ لاحَ بَرْقٌ بالحمى فشجاكِ
لو كان حقاً ما ادَّعيتِ منَ الجَوَى ... يوماً لَمَا طرقَ الجُفونَ كراكِ
ولَمَا ألفْتِ الرَّوضَ يَأرجُ عُرْفُهُ ... وجعلتِ بينَ فروعهِ مغناكِ
ولَمَا اتَّخذْتِ منَ الغصونِ منصَّةً ... ولَمَا بَدَتْ مَخْضُوبةً كَفَّاكِ
لو كنتِ مثلي ما أفَقْتِ من البُكا ... لا تحْسبي شكوايَ منْ شكواكِ
أبكي قتيلَ الطَّفِّ فرعَ نبيِّنا ... أكرمْ بفرعٍ للنبوَّةِ زاكي
أيزيدُ لو راعيتَ حُرمةَ جدِّهِ ... لمْ تقتنصْ ليثَ العرينِ الشاكي

(المقري التلمساني ١٩٨٦ج٧ص٦٩ ، الغزالي الدكتور عبد الامير ١٩٧٩ص٢٦١-٢٦٢)

وما أن انتهيا من على مسرح الحياة أبو البحر صفوان ومعاصره الوادي آشي حتى أخذ راية رثاء الحسين عليه السلام شاعر أندلسي مفلق آخر هو أبو محمد صالح بن شريف المعروف بأبي البقاء الرندي (٦٠١هـ - ٦٨٤هـ) وقد أكثر في رثاء الحسين عليه السلام ، وكان أكثر شعره في هذا الباب قد أصابه الضياع شأنه شأن أشعار أقرانه .

ومن جدير ما يذكر إعجاب الرندي بأبي البحر حيث يقول عنه في كتابه "روضة الأنس ونزهة النفس" (وقد ألمت بطريقة صفوان رحمه الله في رثائه الحسين عليه السلام بجلمة حذوت فيها حذوه فبلغت شأوه بما هو في المعنى أغرب وإلى الحال أنسب ، وذلك أني صنعت مخمسة على حروف المعجم مذيلة بإعجاز من قصيدة زهير ، فيها:

أبيتُ فلا يُساعدُني عزاءٌ ... إذا ذُكِرَ الحسينُ وكربلاءُ
فَخَلِّ الوجدَ يفعلُ ما يشاءُ ... لِمثلِ اليومِ يُدَّخرُ البكاءُ
عفا منْ آلِ فاطمةَ الجَوَاءُ
بعينك يا رسولَ اللهِ ما بي ... دموعي في انهمالٍ وانسكابِ
وقلبي في انتهابٍ والتهابِ ... على دارٍ مُكَرَّمةَ الجنابِ
عفتها الريحُ بَعْدَكَ والسماءُ

(الأمين السيد حسن ١٩٨٦م٤ص٢١٥)

ومن شعراء الرثاء الحسيني شاعر معاصر للسان الدين ابن الخطيب (المقري التلمساني ١٩٨٦ج١٠ص١٦٦) هو الشاعر ابن جابر الألبيري محمد بن أحمد بن الهواري ، ومن رثائه الحسين قوله:

وكانَ الحسينُ الصارمُ الحازمُ الذي ... متى يَقْصُرُ الأبطالُ في الحربِ يَشْدُدِ
شبيهَ رسولِ اللهِ في البأسِ والنَّدى ... وخيرَ شهيدٍ ذاقَ طعمَ المُهَنَّدِ
لمصرعِهِ تبكي العيونُ وحقُّها ... فللهِ منْ جُرْمٍ وعظمٍ تَوَدُّدِ
فبُعداً وسُحقاً لليَزيدِ وشمْرِهِ ... ومَنْ سارَ مَسْرى ذلكَ القصدِ الرَّدي

(نفس المصدر ج١٠ ص ٣٦٦)

ولابن المناصف موسى بن عيسى المتوفي (٦٢٧)هـ أرجوزة في مقتل الحسين نظمها

باقتراح ابراهيم الدرعي الكفيف وقد وقف عليها ابن عبد الملك بخطه . (نفس المصدر ج٦ص٢٧٢) ولكن لم يصل إلينا منها شيء وهذا من الدواهي التي أصابت الأدب العربي بشكل عام والأدب الشيعي على الخصوص .

النتيجة:

بعد هذا العرض فقد تبين لنا وعلى الجملة كيف كان عظم التشيع وركازته في الأندلس ، وكيف كان رثاء الحسين عليه السلام عند الشعراء الشيعة الأندلسيين وكيفية تطوره في أشعارهم من وروده ضمنا في قصائدهم إلى إفراد القصائد المستقلة له إلى تخصص بعض شعراء التشيع بالرثاء الحسيني وعدم النظم في غيره البتة ، وكذلك قد أشرنا بأنه لم يغادر أحد من شعراء التشيع الوقوف في كربلاء والبكاء عليها ، وكذلك قد ألمحنا إلى ضياع أكثر هذا النوع من الشعر وسنحاول الكتابة عن هذا الجانب في بحث مستقل إن شاء الله أن وفقنا للكتابة عن الجوانب الفكرية في شعر الرثاء الحسيني التي لم نعرج عليها في بحثنا هذا واكتفينا فقط بالاشارة إلى موارد رثاء الحسين عليه السلام عند شعراء الأندلس .

مصادر البحث

- ابن الخطيب لسان الدين — أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام — المطبعة الجديدة ١٩٣٤ .
- ابن خلدون عبد الرحمن — العبر وديوان المبتدأ والخبر — بيروت ١٩٦١.
- ابن خير — الفهرست ١٩٦١ .
- ابن القوطية — تاريخ افتتاح الأندلس — نشر خوليان رايبرا — مدريد ١٩٢٦.
- ابن قولويه — كامل الزيارات — المطبعة المرتضوية — النجف ١٣٥٦هـ ش.
- الأمين السيد حسن — دائرة المعارف الشيعية — دار التعارف للمطبوعات — بيروت ط٣ ١٩٨٦ .
- الأمين السيد حسن — أعيان الشيعة — دار التعارف للمطبوعات — بيروت — ١٩٨٩ .
- شبر السيد جواد — أدب الطف — دار المرتضى — بيروت ط١ ١٩٨٨ .
- الشنتريني أبو الحسن علي بن بسام — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة — تحقيق — د. إحسان عباس — دار الثقافة — بيروت ١٩٧٩ .
- طه الدكتور عبد الواحد ذنون — دراسات أندلسية — رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٤٦٧ لسنة ١٩٨٦ .

❖ الغزالي الدكتور عبد الامير عبد الزهرة عناد — أدب التشيع في الأندلس — رسالة ماجستير باللغة العربية — الجامعة الإسلامية الحرة — إيران — قم ١٩٩٧ .

❖ القضاعي البلنسي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الأبار — درر السمط في خبر السبط — تحقيق — د. عبد السلام الهراس ، وسعيد أحمد عراب — تطوان — ١٩٧٢ .

❖ المغربي بان سعيد — المغرب في حلى المغرب — تحقيق د. شوقي ضيف — دار المعارف — القاهرة ط٣ . ١٩٧١ .

❖ المقري التلمساني أحمد بن محمد — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب — تحقيق الشيخ محمد البقاعي — دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت ط١ ١٩٨٦ .

❖ ناجي الدكتور منير — ابن هانئ الأندلسي — دار الجامعيين ط١ ١٩٦٢ .

الدواوين

❖ ديوان ابن دراج — تحقيق — د. محمود علي مكي — منشورات المكتب الأسلامي — دمشق ط١ ١٩٦١ .

❖ ديوان ابن هانئ الأندلسي — طبع بيروت بالمطبعة اللبنانية ١٩٨٦ .

المجـــلات

❖ مجلة المناهل — تصدرها وزارة الشؤون الثقافية في المملكة المغربية .

❖ مجلة الهادي — دار التبليغ الإسلامي — إيران — قم — العدد ٢ السنة الأولى — ١٣٩١ هـ .

❖ مجلة الموسم — هولندا — العدد ١١ سنة ١٩٩١ .